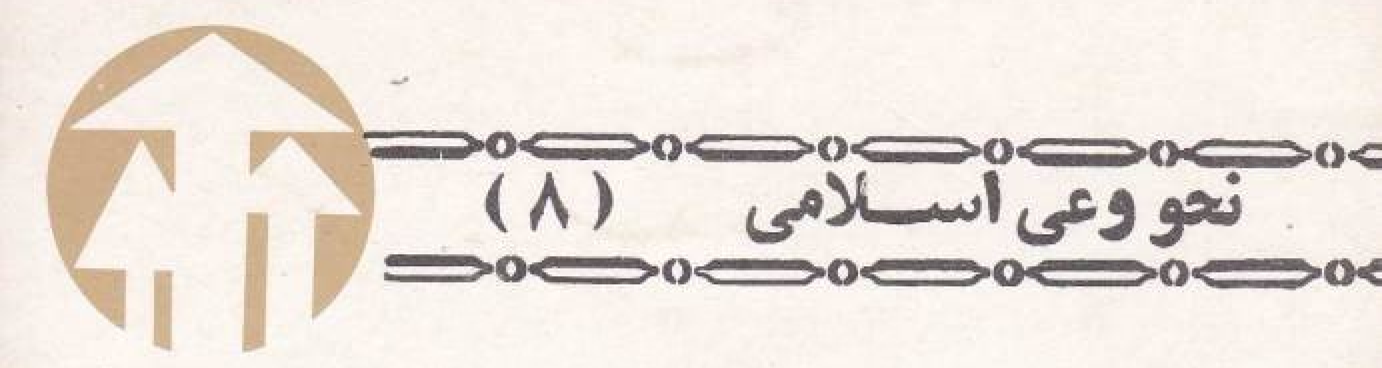
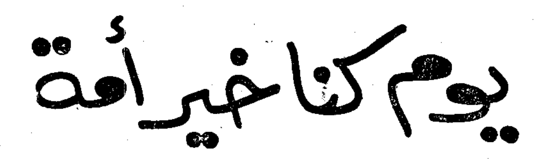


يوم كنا خير أمة

محمد جلال كشك



المملكة العربية السعودية
وزارة المعارف
ادارة المكتبات المدرسية



محمد جلال كشك

المختار الاسلامى
للطباعة والنشر والتوزيع
ص . ب ١٧٠٧ ـ القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الغزوة الحضارية التى تتعرض لها امتنا ، لا تشمل حاضرها وحده ، ولا تهدد مستقبلها فحسب ، بل هى بالدرجة الاولى تتناول ماضيها .. تشوه هذا الماضى وتزيفه ، تقيم ستارا من الجهل والتجهيل بين الجيل الحاضر وتراثه وماضيه ، لكى تقتلعه من جذوره لان الغزاة يعرفون أن امة بلا ماض هى امة بلا مستقبل .. والذى لم يكتب أسلافهم تاريخا يعتزون به لن يكتبوا هم ولا أحفداهم شيئا فى سفر التاريخ .. من العار ياتون والى العار يذهبون ..

فالعودة الى التراث ، لا تعنى السلفية بمعنى رفض التجدد والنوم على امجاد الماضى . بالعكس ان كل حركة بعث حقيقية تبدأ بالعودة الى التراث ، وكل فكر قادر على التغيير ، هو فكر يبدأ بقراءة معاصرة للتراث ، وبداية رفض الواقع ، هى الاحساس بان هذا الواقع غير جدير بامة كان هذا ماضيها ، ثم الايمان بقدرة هذه الامة على بناء مستقبل جدير بالنسبة الى ماضيها المجيد ..

اما اذا انطلقنا من فرضية التسليم بأن الحاضر افضل من الماضى ، فلماذا نثور عليه ولماذا نغيره ؟ ..

ان كان تاريخنا هو تاريخ الاغوات والجوارى والسيف والنطع .. أفليس الواجب أن نشكر الغزوة الاوروبية التى حضرتنا وحررتنا ووضعتنا فى طابور الجنس البشرى ، ولو فى مؤخرته ؟!..

فالرافضون للتراث ليسوا تقدميين ولا ثوريين وان ادعوا ذلك والمعتزون بالتراث ليسوا رجعيين ، ولا متخلفين ، وان اتهموا بذلك .

ولقد كان قادة اسرائيل ، الغزوة الغربية الثانية لوطننا ،

أول من أدرك أهمية التراث ، فعملوا فى اتجاهين ، ترويج الفكر المضلل عن تراثنا .. والاشادة بالتراث الصهيونى .. تزييف التراث الصهيونى وبعثه من جديد ، وتشويه التراث العربى .. بهدف اقناع العربى أنه مهزوم تاريخيا ، فى الماضى ، كما هو فى الحاضر ، وكما يجب أن يكون فى المستقبل ، اقناعه بانه ليس متخلفا بحكم ظروف سياسية واجتماعية وتاريخية ، بل هو متخلف بالفطرة .. والصهيونية منتصرة اليوم ، لان اليهودى متفوق بطبعه ..

فمثلا بعد حرب حزيران (يونيه) ١٩٦٧ ، اهتمت كل الصحف الصهيونية والموالية للصهيونية ، بمقال قيل ان « موشى ديان » ، كان قد كتبه قبل العدوان الاسرائيلى استوحى فيه التراث ، فى تحديد خطة المعركة التى يجب ان يخوضها الاسرائيليون ضد العرب .. وقيل أن العسكرى الاول فى اسرائيل قدم فى هذا المقال « تحليلا جديدا » من وجهة النظر العسكرية المعاصرة ، للمعركة التى ورد ذكرها فى التوراة ، بين « داود وجوليات » .

وقالت الصحف العالمية فى تعليقاتها على هذا المقال ان موشى ديان كان يلمح الى خطة ضرب الطيران المصرى ، بضربة مفاجئة حاسمة فى الموضع الحساس ، كما ضرب « داود » الصغير ، « جوليات » – العملاق الفلسطينى – بالمقلاع ضربة مفاجئة فى جبهته .. فلما انهار العملاق ، انهار الجيش الفلسطينى كله .

بينما كان مثل هذا النصر متعذرا لو قبل « داود » ان يشتبك الجيشان ، بالاسلوب التقليدى مما يتيح للعملاق استخدام تفوقه . بل انهت الحرب هذه الضربة المفاجئة .

والكليات العسكرية فى اسرائيل تتضمن الدراسة فيها ، مادة خاصة بتاريخ المعارك التى يزعم مؤرخوهم وحاخاماتهم انها دارت بين الاسرائيليين من جانب ، والفلسطينيين ، وشعب المنطقة ، من جانب آخر ، منذ آلاف السنين ، ويزعم العسكريون الاسرائيليون ، انهذه الدراسات تحاول الاستفادة بها فى التدريبات المعاصرة .

وبالطبع لا وجه للشبه أو المقارنة بين ضربة « داود » والتخطيط الامبريالى الصهيونى العالمى ، والتكنيك المتفوق والميراج والسكاى هوك ، وكل ما يمنحه الامبرياليون لامتدادهم الصهيونى .. ولكن خبراء الاستعمار الصهيونى ، يهدفون من هذه الدراسات الى افتعال تاريخ مشترك للاسرائيليين الذين يفتقدون مثل هذا التاريخ .. اذ لا وحدة تاريخ بين يهود اليمن ويهود فيينا ، الا هذه الاساطير التى تفتعل وتحقن داخل راس الجندى الاسرائيلى .. فالدعاية الصهيونية تريد ان تفتعل صلة بين جيش المستعمرين ، وبين أرضنا ، بالزعم ان المستعمرين الصهاينة هم احفاد الاسرائيليين الذين حاربوا فوق هذه الارض منذ الفى عام .. ومن ثم فان الاحفاد يواصلون مهمة الاجداد ..

ان الصهيونية تدرك أهمية التراث ، تدرك انه لا يمكن ان توجد امة بلا تاريخ ، بلا تراث ، وانه لا مستقبل لمن لا ماضى لهم .. الصهيونية تفتعل تاريخا مزيفا ، ليس له أى دليل عقلى أو واقعى ، وتحاول أن تفسره بمفهوم يخدم أهدافها المعاصرة ، وذلك هو فعلا دور التراث ـ بصرف النظر عن مشروعية الاهداف ـ ..

ان يلهم الاجيال باستمرار قيما حية تلهب حماستهم لبناء مستقبل جدير بماضيهم ..

الصهيونية تدرك اهمية التراث ، لذا فقد عملت ، والامبريالية الغربية من قبلها ، على صرفنا نحن العرب ، عن الاهتمام بتراثنا ، على الخجل منه ، على السخط عليه ، على تحميله مسئولية كل ما ينزل بنـا من كوارث ! حتى اصبحت كلمات مثـل التجـديد والعصرية فى أفواه المتشدقين لا تعنى الا نبذ التراث والسـخرية منه ..

وقضية التراث تحيط بها دائما مخاطر سوء الفهم من تيارين :

● تيار « حانوتية التراث » الذين حولوا تاريخنا الى ضريح يطوفون به ويذرفون الدمع الكاذب عليه ، يرفضون ان يعيشـوا قضايانا المعاصرة ، أو يتفهموا هذا التراث على نحو يخـدم هـذه القضـايا .. مكتفين بالانتشـاء بخمر الاسـلاف .. والحـق ان حضارتنا بشـموخها وجلالهـا ، قادرة على أن تنسى مرارة الزمان الذى نعيشه ، وبؤس المكان الذى ورثه الاحفاد .. وكم تخدرت اجيال من امتنا باستغراقها فى تلاوة التراث .. بل وكم استهانت اجيال من امتنـا بخطر ما يدبر لها مـن اعدائهـا لان نور مجـد حضارتنا ، بهر عيون تلك الاجيال ، فعجزت عن رؤية ما كان يتحرك فى الظلام .

فهو ان تراثنا يعلمنا الا نستهين بدأب الجرذان أو دابة الأرض .. فالاولى ظلت تقرض فى سد مارب ، حتى انهـار ، واطاح به السيل ، وتبددت حضارة سبا ، وذوت الجنتان . والثانية اكلت منساة سليمان وانطلق الجن فرحين .

ومهما يكن شموخ تراثنا وعظمة أسلافنا ، فلا شك ان قرونا من الظلام قد سادت الوطن الإسلامى ، ولا شك ان قرون التخلف قد فرضت آثارها على كل شىء ، وعلى الانسان العربى أولا وقبل كل شىء .. وان عطر الحضارة الآفلة قد اختلط بعفن القرون المظلمة .. وان الباحث عن الجوهر لا بدله ان ينفض أولا أكوام الغبار .. وان الذين يدعون انهم سدنة التراث وحفظته ولهم وحدهم حق تفسيره ، ليسوا أفضل من خفراء الآثار .. جهلا به ، وعجزا عن فهمه فضلا عن تفسيره .. وان معظمهم لا يعرفون من التراث الا اكوام التراب التى تجمعت طوال قرون التخلف ، فحجبت جوهره ، وان كانت قد صانت هذا الجوهر ، فى نفس الوقت ، عن أن تشوهه ايدى الاحفاد من العاجزين والمتخلفين .

● أما الموقف الخاطىء الآخر من التراث ، فهو موقف التنكر له ، رفض الاعتزاز به ، والانتماء اليه ، موقف أولئك الذين تم غزوهم فكريا ، وزرع الفكر الغربى ، عقلا فى رؤسهم ، فتنكروا لتاريخهم ولهثوا خلف نفايات الشعارات ، وجيف النظريات التى قذف بها المحيط الغربى المعادى عند شواطئنا .. هذه الشعارات التى تلح حول ضرورة التخلص من التراث ولعنه لنصبح مجتمعا عصريا علمانيا ! ..

أما الموقف الصحيح ـ فى اعتقادنا ـ فهو ذلك الذى يعود الى التراث ، لا بهدف اعادة الماضى ، فالماضى لا يعود .. ولكن بهدف استلهام قيمه الحية ، ومثله الخالدة ، لكى نصوغ بوحيها وعلى هديها ، وبما تثيره فينا من ايمان بالذات ، واعتزاز بالكيان ... نصوغ مستقبلنا ، ونتمرد على واقعنا التعس .. فلن نثور على

هذا الواقع ، ولن نبنى مستقبلا مشرقا الا اذا آمنا اننا حفدة من منحوا البشرية عصرا من اشرق عصورها ..

يبقى سؤال : هل يمكن ان نستلهم فيما للقرن العشرين من حضارات ونماذج انسانية عاشت فى القرن السابع ..

والجواب .. نعم .. لان القيم الانسانية واحدة ، وان اختلفت صيغ التعبير بحكم التقدم التكنولوجى .. فالديموقراطية واحدة ، سواء اكانت برفع الايدى فى ميادين اثينا ، او بمناداة الخليفة : « الصلاة جامعة » كلما واجه أمرا يحتاج فيه الى مشورة الناس ، أو كانت بالاجهزة الاليكترونية .. والاستبداد واحد سواء اكان فى حرق روما أو قيادة المانيا الى حرب خاسرة ...

المهم هو القراءة العصرية للتراث .. البحث عن القيم الخالدة فيه ..

١

فى ٥ حزيران (يونيه) ١٩٦٧خرج الرئيس السابق عبد الرحمن عارف يودع الجيش العراقى ، الذى لم يصل الى ميدان القتال ، سواء لانه ضرب قبل أن يصل أو لان القتال انتهى بأسرع من قدرة المركبات على الحركة .. وخلال لحظة الوداع استمد « عبد الرحمن عارف » ذكريات التاريخ فاوصى جنوده بكلمات أبى بكر الصديق فى وداع أسامة أول قائد عربى وطات سنابك خيله أرض فلسطين .. قال عبد الرحمن عارف من كلمات أبى بكر : « لا تخونوا .. ولا تغلوا .. ولا تغدروا .. ولا تمثلوا .. ولا تقتلوا طفلا صغيرا . ولا شيخا كبيرا .. ولا امرأة .. ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا .. الا لمأكله » ..

ومع انقاض الهزيمة ، لم يبق كاتب انهزامى الا وسخر من كلمات « عبد الرحمن عارف » .. اذ لم تتح الفرصة للعرب ليقتلوا جنديا ولا طفلا ..

وفى اليوم نفسه كانت « يائيل ديان » تقف فى منطقة « نخل » بسيناء وتصفها بانها أبشع مكان فى العالم ، والسبب فى كراهية « يائيل ديان » لمنطقة نخل هى انها المنطقة التى اسكن فيها ابراهيم أم العرب « هاجر » عندما حولتها « سارة » أم اليهود الى لاجئة وطردتها من بيتها كما هى العادة حسب اعتقادها !

كانت « يائيل » تعيش خلال حملة التكنولوجيا فى عام ١٩٦٧ دقائق وتفاصيل التوراة .. ولم يستغرب أحد ولا استهزأ بها مستهزىء عصرى .. وقد نشرت صحف العالم كله

تعليق موشى ديان على اسطورة هذا الجندى الاسرائيلى الذى عربد فى جنوب لبنان ، وقال موشى ديان بالحرف الواحد كما هو منشور فى المجلات العالمية « لقد كان الله معه .. فهذا هو التفسير الوحيد لمعجزته » !

لماذا يبدو تراثنا هزليا ، وتراثهم مجيدا ؟ ! .

هل لان عبد الرحمن عارف فى كلمات ابى بكر يشبه « أحمد مظهر » فى ثياب صلاح الدين ؟ ! .. أم لان الهزيمة تسقط قيمة الماضى ، كما تدين الحاضر ، وتشكك فى المستقبل ؟ ..

* * *

تعالوا نعش مع « اسامة » الذى ودعه أبو بكر بهذه الكلمات ، فمزقت كلماته اطارات حضارات منهارة ، وأرست قيم حضارة جديدة اذهلت التاريخ فاجبرته على أن يحفظها ١٤ قرنا الى أن تحولت على يد خلف « كجلد الاجرب » الى نصوص هزلية ..

اسامة ...

من هو اسامة ؟

ابن زيد بن حارثة وام ايمن ..

ومن هو زيد بن حارثة .. ومن هى أم ايمن ؟

زيد بن حارثة كان طفلا عربيا تجرى فى عروقه دماء افريقية اذ كان كما يصفونه « قصيرا شديد السمرة فى انفه فطس .. » خطفته قبيلة عربية فى غارة من غارات الجاهلية وباعوه فى سوق

عكاظ فاشتراه « حكيم بن حزام » واهداه لعمته « خديجة » زوجة محمد بن عبد الله .. ووهبت خديجة عبدها زيدا الى زوجها محمد الذى لم يكن قد بعث نبيا بعد .. فاعتق محمد زيداً اى حرره واتخذه بمثابه الولد .. وعندما استدل والد زيد على مكان ابنه وجاء يطلب استرجاعه ، اختار زيد صحبة محمد على الرجوع الى أبيه ، فتبناه محمد رسمياً واعلن أنه « يرثنى وارثه » ..

وتزوج زيد « أم أيمن » وهى جارية حبشية كانت وصيفة لزوجة عبد الله بن عبد المطلب .. فجاء اسامه .

أبوه عبد تجرى فى عروقه دماء افريقية .

وامه جارية حبشية سوداء خالصة .

وهو :

قيل : توقفت ناقة النبى على راس موكب الحجاج فتعطل الموكب كله .. وتطلع الناس يرون من هو ذلك الذى ينتظره رسول الله ويعطل سير الحجاج من اجله .. فجاء : « غلام اسود افطس قد ترك الجدرى آثاره فى وجهه » .

وتحركت المنجهية وميراث التفرقة العنصرية والطبقية ، فى بعض النفوس فقالوا : « امن اجل هذا الغلام الاسود الافطس .. يوقف السير » ؟ !

امثاله من العبيد السود فى امبراطوريات الروم والفرس ، كان يحظر عليهم لمس شراب او طعام السادة ، وكان يحظر عليهم دخول بيوت السادة ، مكانهم فى الاسطبلات والمراعى .. والاعمال الدنسة .. النابغة منهم كان يصارع الأسود أو المسيحيين لتسلية السادة.

وحتى مطلع عصر التحرر فى اوروبا كانت هناك اسلحة خاصة لا يحق لغير النبلاء استخدامها !

عبد اسود فتك الجبرى بوجهه .. فى عالم ينقسم الى سادة وعبيد .. الى بيض وملونين .. وينقسم السادة فيه الى طبقات ومراتب .. وينقسم العبيد فيه الى درجات .. ادناها واوضعها مرتبة العبد الاسود ..

اى مستقبل لعبد اسود افطس .. ؟

كل المستقبل .. كيف ولماذا ؟ ..

لانه كان اسود سعيد الحظ .. ولد قبل الامم المتحدة ب ١٤ قرنا ، وعلى الجانب الاخر من الكرة الارضية فجاء فى لحظة نادرة من عمر الدنيا ، لحظة ظهور الاسلام ، انبثاق حضارة جديدة لا تقسم الناس الى الوان ، ولا الى اصول واعراق .. ثورة جاءت ليس فقط لتحرر المستذلين والمستعبدين ، بل وتضعهم فى الصف الاول ..

* * *

انظلوا بعث « اسامة » .

انفذوا بعث ((اسامة)) .

كلما افاق رسـول الله مـن حمى الموت ـ بأبى وامى ـ كان يهتف بمن حوله :

((انفذوا بعث أسامة)) ..

اى فليتحرك الجيش الذى يقوده اسامة ..

كان أسامة قد أصبح قائد جيش ؟ .. أو أميرا على الجيش .. بل وكان هو آخر أمير عينه رسول الله ، حتى كان عمر لا يقول لاحد ((السلام عليك أيها الأمير)) الا لاسامة لانه هو وحده الذى، عندما مات رسول الله ، كان أميرا ..

وكان قائدا لجيش ، جنوده كبار الصحابة بمن فيهم أبو بكر وعمر ..

وكان قائدا لأول حملة فى ارض فلسطين .. واخطر حملة لانها جاءت فى ظروف عصيبة .. لحظة وفاة الرسول ، وقيام الحـرب الأهلية داخل الجزيرة ، بل ارتداد العـرب عن الاسـلام ((عامة وخاصة)) حتى كانت ((المدينة)) نفسها مهددة بغزو المرتدين ، يتولى كبار الصحابة حراستها ليلا ..

وكان ((أسامة)) فى الثامنة عشرة او العشرين ..

ما أسرع ما قطعت سلم المجد أيها الفتى الأسود .. ابن عبد وجارية ؟ ! ..

بنبوغه .. بكفاءته .. بإيمانه وتفانيه ؟ ! .

هذا صحيح .. ولكن اهم من ذلك كله هو انتماؤه لحضارة لا سدود طبقية ولا عرقية فيها ..

انتصر اسامة على ميراثه لانه انتمى لحضارة لا تعترف بميراث ظالم ، ولا تقسم الناس لحظة مولدهم الى نجوم وتوابع .. بل « لكل امرىء ما سعى » .. و « كل الناس يولدون على الفطرة » لم تغيرهم البيئة .. « لا فضل لعربى على عجمى » « ان الله لا ينظر الى جلودكم بل الى قلوبكم » .

كان عمره ١٢ عاما وتقدم للتطوع فى غزوة « احد » ولكن طلبه رفض لصغر سنه .. وفى تلك الفترة كان الصبية يتزاحمون على التطوع فى الجيش .. حتى ان بعضهم كان يحتال بان يلبس حذاء عالي الكعب لكى يطيل قامته ويخدع المسؤول عن الفحص ..

وعندما نجحت حيلة احدهم ، جاء اهل صبى آخر يحتجون عند النبى لان تطوع ابنهم رفض بينما قبل تطوع من هو فى سنه !! ثم دارت الايام .. وجاء جيل يقطع اصبع ابنه لكى لا يؤخذ فى الجندية .. وله عذره فالجندية فى عصره لا تحمى قضية ولا تنصر قيما تستحق ان يموت الانسان فى سبيلها ..

رفض تطوع اسامة فى غزوة احد ، ولكنه عاد فى العام التالى وقبل طلبه فى غزوة الخندق ..

وقبل ان ينضم للجيش كان ذكيا يجيد الحرب النفسية .. فعندما انتصر المسلمون فى غزوة بدر ، ارسل النبى زيدا على ناقته يبلغ اهل المدينة بانباء النصر .. ولكن يبدو ان النصر كان اكبر من

من يصدق ، واستطاع اليهود ان يروجوا اشاعة بان النبى قتل والدليل هو ركوب زيد ناقة النبى ..

وتوجه « أسامة » أمام الجميع الى أبيه وانتحى به جانبا ودار بينهما الهمس لحظات انطلق بعدها « أسامة » يهلل ويعلن انتصار المسلمين ، وبهذا الاسلوب .. « الاجتماع بابيه على انفراد ، والتهامس وسط توتر أعصاب الجميع .. ثم اعلان النبأ فى شكل فرحة صبيانية هى أسرع فى الانتقال الى النفوس من الف بيان يعلن فى صيغة رسمية » ..

وفى موقعة « حنين » انهزم جيش المسلمين ، ولم يثبت الا النبى وعشرة مقاتلين كان منهم « اسامة بن زيد » وكان عمره ما بين ١٥ ــ ١٧ سنة .. كان أحد عشرة رجال غيروا مجرى التاريخ ، فان ثباتهم وصمودهم ، قلب نتيجة المعركة ، فقد تحولوا الى نواة التف حولها المقاتلون الفارون بعدما حطم صمود الطليعة ذهول المفاجاة .. وانتصر الجيش الاسلامى !

* * *

يوم الاثنين أعلن تشكيل الجيش وفتح باب التطوع .

يوم الثلاثاء عين النبى « أسامة » قائدا للجيش وعهد اليه الاشراف على اعداده ..

يوم الاربعاء مرض رسول الله ..

يوم الخميس أحس الرسول ببعض التحسن فخرج وعقد لواء القيادة بنفسه لاسامة ..

وكان الجيش يضم ابا بكر وأبا عبيدة بن الجراح وسعد بن أبى وقاص .. كلهم انخرطوا تحت قيادة أسامة ..

وبدأ الهمس يتردد : « يستعمل هذا الغلام على المهاجرين الاوائل ؟ ! » ..

واشتد المرض على رسول الله .. وهو كلما افاق يقول : « انفذوا بعث اسامة » ..

وفى يوم الاثنين التالى تحسنت صحة الرسول فخرج وخطب فى المسلمين : « ان الناس قد طعنوا فى امارة اسامة بن زيد .. ولقد طعنوا فى امارة ابيه من قبله .. وانهما لجديران بها » ..

فالنبى ـ صلوات الله عليه ـ كان يشير الى الطعن فى سن اسامة ، يكتشف انه ليس السبب الحقيقى لاعتراض المعترضين ، فهم قد اعترضوا على أبيه من قبله وابوه بطل موقعة « مؤتة » وشهيدها .. فليس السن هو ما يجمع بين اسامة وابيه ، بل المركز الاجتماعى والاصول والاعراق ..

وامر الرسول بتحرك الجيش ، فتحرك فعلا .. ولكن قبل ان يذهب بعيدا جاء النبا بوفاة النبى فرجع الجيش لانتظار تعليمات الوضع الجديد بعد وفاة الرسول ..

ما هى أهمية « بعث أسامة » .. ؟ !

ولماذا كان الرسول حريصا على انفاذه وهو على فراش الموت ؟ ..

ولماذا أصر أبو بكر على انفاذ الجيش بعد وفاة الرسول واقترح عدد من كبار الصحابة الغاء مهمة الجيش وتوجيهه لمحاربة المرتدين داخل الجزيرة العربية أو الدفاع عن المدينة ذاتها التى يتهددها الخطر : « ان جيش اسامة جل المسلمين وخيرهم والعرب ـ على ما ترى ـ قد انشقت عليك ، فليس ينبغى لك ان تفرق عنك جماعة المسلمين » .

ورفض أبو بكر هذا الاقتراح ، وأصر على خروج الجيش الى مهمته وهى تحرير فلسطين : « لا يبقين احد بالمدينة من جند اسامة الا خرج الى عسكره بالجرف » ، حيث كان معسكر الجيش ..

واثار البعض من جديد قضية سن « أسامة » ولكن « أبا بكر » رفضها بحزم عنيف قضى نهائيا على كل همس حول هذه القضية

لماذا هذا الاصرار على مهمة أسامة ، مع انها من الناحية العسكرية لم تكن اكثر من غارة فدائية فتعليمات الرسول التى حددت مهمة الجيش هى : « سر الى موضع مقتل ابيك (اى الموقع الذى قتل فيه « زيد بن حارثة » خلال موقعة مؤتة) فاوطئهم الخيل . فقد وليتك هذا الجيش .. فاغر صباحا ، وحرق عليهم ، واسرع السير تسبق الاخبار .. فان ظفرك الله فاقلل اللبث فيهم ، وخذ معك الادلاء وقدم العيون والطلائع أمامك » .

فهى غارة « كوماندوز » هدفها الترويع ، وتاكيد استمرار المقاومة بعد الهزيمة والانسحاب فى غزوة مؤته ..

وهى غارة تتسم بالسرعة والمفاجأة ..

غارة تشن فى الصباح ، قبل طلوع النهار ، وفى الساعات الاولى حيث يكون حذر الليل قد انتهى .. واستعدادات النهار لم تبدأ بعد .. ليتوفر لها أكبر قدر من المفاجأة ، مع ارتباك العدو .. وفيها ايضا جراة وتحدى من يغيرون فى الصبح ، وليس فى الظلام ..

وهى غارة يقصد بها الأثر النفسى الذى تستهدفه عادة غارات الكوماندوز أو الصاعقة يقصد بها الترويع والاعلان عنها باشعال الحرائق التى تربك العدو ، وترى من خارج موقع الغارة ، فيتناقل الناس خبرها ولا يمكن لقيادة العدو كتمانها ، بل وتتيح فرصة التوسع فى انبائها والمبالغة فيها ..

وهى غارة خاطفة ، تتطلب سرعة السير التى تسبق « الاخبار » أى أن تكون حركة الجيش أسرع من وشاية الجواسيس أو حتى ثرثرة غير المقدرين لخطورة كلماتهم .. هذا اذا ما كان الهدف هو ضرب العدو فعلا .. ولم يكن الاستعراض العسكرى تحت نوافذ السفارات الاجنبية .. أو تحرك الجيش العراقى الذى أعلن عنه فى الاذاعات العربية ، خوفا من تبطىء « الاخبار » فى عصر التكنولوجيا .. ويزعم الاسرائيليون انهم علموا بنبأ تحرك القوات العراقية وموقعها من الاذاعات العربية ! ..

وهى غارة يسبقها فى تحركها أدلاء وعيون ينقلون الاخبار عن العدو ، ويكتشفون طبيعة الأرض ، ويرشدون تحرك القوات المغيرة ..

وهى غارة خاطفة « فان ظفرك الله فاقلل اللبث فيهم » ..

لان حجم القوة المغيرة لا يسمح لهـا بالبقاء فى أرض العـدو حتى يفيق العدو منمباغتة الهجوم ، ويشن هجومه المضاد ..

لماذا كانت هذه الغارة الخاطفة ، ولماذا كان الاصرار عليها ؟

المؤرخون العسكريون يضيفونها الى عبقرية الرسول العسكرية، فهى جاءت فى لحظة خطرة من ناحية الحسابات العسكرية ..

● أول صدام مع العدو الخارجى انتهى بانسـحاب جيش المسلمين فى غارة ((مؤته)) بل ومصرع القواد الثـلاثة الذين كان النبى قـد عينهم ليحل كل منهم محل الآخـر اذا قتل .. فقتل الثلاثة وتولى القيادة قائد فرضته ظروف المعركة هو ((خالد بن الوليد)) الذى تجلت عبقريته ـ وقتها ـ فى الانسحاب بالمسلمين من موقعة تبين له استحالة النصر فيها ..

كان العدو الاجنبى المحتل لفلسطين على حدود جزيرة العـرب قد تنبه لخطر المجتمع الجديد والقوة الاسلامية الزاحفة ، ووصل ((هرقل)) قيصر الروم الى حمص فى سوريا يدرس الموقف ويتخذ الاستعدادات لضرب الخطر الجديد قبل أن ينمو ..

والمسلمون خرجوا بتجربة قاسية فى أول لقاء .. قتل زيد ابن حارثة ، وجعفـر بن أبى طالب ، وعبـد الله بن رواحـه ، وانسحب المسلمون ..

ماذا كان يمكن ان يحدث لو ان الروم انتهزوا الفرصة وهجموا على الجزيرة عند وفاة النبى وارتداد العرب ، ونشوب الحـرب الاهلية بين العرب المسلمين ، والعرب المرتدين ؟ ..

أليس الهجوم هو أفضل وسيلة للدفاع ؟ !

اليست مفاجاة العدو بالهجوم فى هذه الظروف تقلب كل خططه وتشككه فى حساباته .. وتحطم معنوياته ؟ ..

أليس فى انتشار نبا الحملة رفع لمعنويات المسلمين فى لحظة وفاة نبيهم ، والانشقاق العام .. وشل لتردد المترددين والمتشككين ، وتحطيم لمعنويات المرتدين الذين ظنوا ان راية الاسلام قد طويت .. ؟!

كانت القوى الخارجية تتوقع تمزق وحدة العرب ، بوفاة الرسول ، وكانوا يتوقعون انشقاقا فى صفوف المسلمين وخلافا حول ميراث الرسول الدينى والدنيوى ، فهكذا حدث فى معظم الرسالات ، وفى حالة العرب بالذات ، فان تاريخ العرب وخلافاتهم القبلية ، وطبيعتهم الفردية ، كانت تؤكد ان تمزق وحدتهم هو الاحتمال الاكيد بعد الوفاة ..

كان الفرس والروم يدركون الكفاءة العربية الفردية ، ولكنهم كانوا مطمئنين الى افتقار العرب للنظام الذى يوظف هذه الكفاءات ، ويتيح لها فرصة التالق والتكامل .. فالعربى لم تكن تنقصه الشجاعة ولا الكفاءة الحربية ، ولكن طاقة العرب كانت مبددة فى القتال فيما بينهم .. فلما تسلحوا بعقيدة تسمو فوق الانانيات تفجرت طاقتهم .. واصبحت الممالك من حولهم ترقب هذه المعجزة فى فزع من حكم عليه التاريخ بالهزيمة ..

ولذلك كانوا ينتظرون عودة أرض العرب الى تاريخها القديم واخلاقياتها التقليدية .. طاقات هائلة ..ممزقة مبددة .. باسهم فيما بينهم شديد ..

وجاءت انباء الردة بعد وفاة الرسول تؤكد صحة هذه التوقعات .. ومؤكد انه لو انشغل المسلمون بانفسهم واتخذوا خطة التراجع الدفاعى ، لتشجع الروم أو الفرس وغزوا الجـزيرة ، او حتى مدوا يد المعونة للقبائل المرتدة .

وجاءت غارة « اسامة » تقلب كل الموازين والحسـابات .. وكانت عبقرية عسكرية ..

فقط ؟

لا ...

أبعد من ذلك واكبر .. كانت حملة « أسامة » .. والاصرار على قيادة اسامة بالذات .. تستهدف مضمونا حضاريا .. فليس بالعبقرية العسكرية وحدها تنتصر الامم وتقوم الحضارات .. بل بالقيم المتفوقة التى تطرحها ..

وعندما توفى الرسول كانت الحضارة الجديدة تقف على حافة الصدام ، مع الحضارات القديمة التى تحكم العالم ، فى لحظة المواجهة المنتظرة والاحتكام للتاريخ الذى سيقرر أية حضارة هى الاصلح للبقاء .. ومن حكم عليه التاريخ بالفناء ..

وجاءت بعثة « اسامة » منشـورا يتضـمن ملامح الحضـارة الجديدة وما تطرحه من قيم جـديدة لعـالم هرم تمـزقه أمراض الشيخوخة : التفرقة الاجتماعية والجنسية والعنصرية ..

وجاء جيش أسامة

قائده اصغر قائد عسكرى فى العالم ـ وقتها ـ عمره ما بين ١٨ و ٢٠ سنة ..

وتحت قيادته كبار المسلمين ، بل يسمع العالم ، ان أحد جنود هذا الجيش انتخب خليفة ، أى رئيسا للدولة .. فالرئاسة لا تورث كما هى الحال فى فارس ، ورئيس الجند لا يصبح ملكا ولا يعين الملوك .. ورئيس الدولة يمكن أن يكون مجرد جلدى عادى فى جيش يقوده شاب دون العشرين ،أسود الوجه أفطس الأنف ، أكل الجدرى وجهه .. أمه عبدة حبشية ، وأبوه من الرقيق ونصف عربى ..

أى آمال تثيرها صفات هذا القائد فى الجماهير المطحونة فى امبراطورية الروم والفرس حيث كان الاحرار يقسمون الى مواطنين من الدرجة الأولى ومواطنين من الدرجة الثانية حسب جنسياتهم ، ويقسمون الى نبلاء وعامة .. ثم الى احرار وعبيد .. فاذا بالحضارة الجديدة يقود زحفها ابن عبد وجارية ..

لم يكن اختيار أسامة مصادفة .. ولا الاصرار عليه .. بل كان اصرارا على القيم وعلى ترسيخها ..

* * *

هل نرافق أسامة قليلا فى زحفه ونغبر اقدامنا ساعة فى سبيل الله كما قال أبو بكر .. وهو يسير الى جانب فرس « أسامة » .. « أسامة »فوق ظهر الجواد ، وخليفة المسلمين رئيس الدولة يسير ماشيا الى جانبه ، وأسامة يدعوه للركوب أو ينزل هو من على ظهر فرسه ، فيقسم الخليفة « والله لا نزلت ولا ركبت » .. معلنا بذلك مكانة المجاهدين ووجوب احترام من يبذل دمه فى سبيل العقيدة والوطن .. بل ونقف عند عنصر من عناصر تفوق حضارتنا ـ فى تلك المرحلة ـ فرئيس الدولة يستأذن أسامة فى تسريح

« عمر بن الخطاب » لان الخليفة يحتاج اليــه فى ادارة شــؤون الدولة فى تلك الفترة الحرجة .. ويوافق أسامة ، وبعد أذنه ، يعفى عمر بن الخطاب من الخدمة العسكرية ..

ففى هذا الوقت كانت القيادة الســياسية تعرف ان القــائد العسكرى هو وحده المسؤول عن جنوده ، ولا يجوز أن تتخطاه ، فتصدر الاوامر الى الافراد من خلف ظهره ، أو تفاجئه بها مكتفية باخطاره فى أفضل الظروف .. فليس فى جيش المسلمين المنتصرين « جندى متصل » ولا « جندى صاحب نفوذ » ولا « جندى فى مركز قوى » بل الكل سواسية وتحت امرة القيادة العامة للجيش .. وعلى أعلى سلطة فى النظام ان تستأذن هذه القيادة فى كل اجراء يتناول جنودها ، أى مسؤوليتها ..

احترام الاختصاصات .. الاصرار على الشرعية ، هو الذى يمكن الخليفة المقيم فى المدينة من خلع قائد عام القوات المنتصرة فى الشام الزاحفة على دمشق (من خارجها وليس من قيادة الأركان) يعزله بمكتوب على قطعة من الجلد أو حتى قطعة عظم .. فينعزل القائد ويهتف سمعا وطاعة ، وتحت أمرته كل جند الدولة ..

فى تلك الأيام كان عزل قائد الجيش ونقله من أعلى منصــب الى مجرد جندى لا يحتاج الى اجراءات أمن ولا الى تدابير خاصة ولا الى مباغتة ..

عزل « أبو بكر » « أبا عبيده » عن القيادة وعينه تحت أمر « خالد » . وجاء « عمر » فعزل « خالدا » وهو يحاصر دمشق ورد القيادة الى أبى عبيده ، فاخفى أبو عبيــده الامر واســتمر تحت قيادة خالد (لم يتحفظ عليه ولا أرسله مخفورا) حتى تم

فتح المدينة . فاعلن النبا فعاتبه خالد : « يرحمك الله ما منعك ان تعلمنى حين جاءك » قال قائد جيش خير أمة :

« كرهت أن أكسر عليك حربك ، وما سلطان الدنيا أريد ، ولا للدنيا أعمل ، وما ترى سيصير الى زوال وانقطاع ، وانما نحن اخوان ، وما يضر الرجل أن يليه اخوه فى دينه ودنياه » .

يوم كنا خير أمة فتحنا الشام كلها ويوم أصبحنا نخجل حتى من وصفنا باننا خير أمة اضعنا ما حماه الجدود وحرروه .

* * *

هذه المكانة التى كانت « لاسامة » عند النبى ، حتى كان يلقب الحبيب ابن الحبيب ، اغرت بعض المنحرفين باستغلالها لتعطيل سيادة القانون ، فطلبوا منه أن يتشفع لوقف تنفيذ القانون فى امرأة سرقت .. ولكن النبى ينهاه فى حزم « لا تتشفع فى أحد ابدا » اى لا تحاول أبدا أن توقف تنفيذ القانون ..

ويفهم « أسامة » انه مهما تكن محبة الرسول له ، ومهما تكن مكانته فى الدولة وتضحياته فى سبيلها ، وانتصاراته ، فان ذلك كله لا يبيح له ان يتدخل لوقف تنفيذ القانون ، أو للاعتداء على استقلال القضاء ..

معذرة يا « أسامة » .. اضاع تراثك من لا بطولة لهم الا على القانون ، ولا غزوة لهم الا ضد الشرعية ، ولا انتصار لهم الا على الحريات والحقوق ..

معذرة والف معذرة يا أسامة ..

ومرة أخرى يتلقى الحبيب ابن الحبيب درسا عنيفا من الرسول ، عندما يلاحق مقاتلا فى احدى الغزوات ويدركه ويرى الرجل السيف فوق رأسه فيهتف « لا اله الا الله » .. ولكن سيف أسامة يسبقه فيقتل الرجل .. ويعود فيخبر رسول الله بالقصة ، فيغضب ويقول : « وماذا تفعل بلا اله الا الله » .. يقصد الرسول ان الرجل باقراره بوحدانية الله قد حمى دمه من سيف أسامة . وانتهت الحرب بينه وبين اسامة .. ويعتذر « أسامة » بان الرجل انما قالها ليهرب من الموت ، فقد ظل على رفضه وعداوته حتى ادركه السيف .. فيرد الرسول : « وهل شققت عن قلبه » ؟ !

ليس فى حضارتنا محاكمة النوايا ولا محاسبة القلوب على ما تضمر ..

واحس أسامة بالندم ، وتمنى لو أنه بدأ اسلامه لحظتها ، ليمحو من تاريخه هذه الغلطة .. واقسم للنبى ان لا يرفع سيفه بعدها على رجل يقول : « لا اله الا الله » .. ولذلك رفض ان يتدخل فى الخلاف بين « على ومعاوية » ، بل قال لعلى « والله لو دخلت فى فم تنين لاتبعتك ولكنك تعلم اننى عاهدت رسول الله الا اقاتل من يقول لا اله الا الله » .

عاش أسامة حتى رأى الحفاة العراة .. السمر والسود والصفر .. يحكمون العالم ويمنحون البشرية عصرا من ازهى عصورها ..

والعبد الاسود الافطس الانف .. المجدور الوجه لم يعد

فقط مثالا يحتذى لاصحاب العقائد والمجاهدين .. بل حتى للاجيال المترفة من ابناء المجاهدين المتمصرين .. فقد رأت « ميمونة » أم المؤمنين شابا من اقاربها يسير وقد أرخى حزامه على وسطه فاستنكرت ذلك فاعتذر بان : « هذه هى طريقة أسامة » بن زيد فى اللباس » ..

قال أبو بكر يودعه :

لا تخونوا ولا تغدروا ..
لقد خنا يا خليفة رسول الله وغدرنا .. وما من لواء عين على الجبهة الا ودبر الزحف على العاصمة ، حتى أصبحت التقاليد هى حرمان قوات الجبهة من الذخيرة .

ولا تغلوا .. (أى لا تختلسوا) ..

آه يا خليفة رسول الله لو اطلعت على حسابات زوريخ وجنيف بل وحتى بيروت التى فتحها الذين لا يغدرون ولا يغلون ..

ولا تمثلوا .. ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة .. ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ، ولا بعيرا الا لمأكله ..

صرنا المثلة يا أمير المؤمنين .. لما مثلنا ببعضنا .. قتل اطفالنا وشيوخنا ونساؤنا بالنابالم ، لما يتمنا اطفالنا وما رحمنا شيوخنا ، ولا اعفينا حتى النساء من المحاكم المخصوصة ..

رضوان الله عليك واحترام التاريخ يا أسامة بن زيد خير بطل من خير أمة ..

٢

فى غزوة بدر كان عدد المهاجرين الذين اشتركوا فى القتال ٨٦ مقاتلا هم حصيلة عشر سنوات قضاها الرسول فى مكة يدعو للدين الجديد ، وكان جيش المسلمين كله ، مهاجرين وانصارا ٣١٣ هزموا جيشا تعداده ثلاثة اضعافهم فى معركة من أهم معارك التاريخ كله ، باعتبار ما ترتب عليها من نتائج غيرت وجه العالم ..

كيف استطاعت هذه الحفنة من الرجال ، الذين نبتوا فى اكثر بلدان العالم تخلفا من الناحية التكنولوجية ، وافقرها مواردا ، واكثرها تمزقا ، ان يغيروا وجه العالم ، ويفرضوا ارادتهم عليه عشرة قرون كاملة ، ويتركوا بصماتهم على الضمائر والتاريخ الى زمن غير محدود ..

ثلاثة مواقف على الطريق الى غزوة بدر تكشف نوعية التعاليم التى صنعت الرجال .

كان جيش المسلمين ٣١٣ مقاتلا .. ووسائل نقلهم لا تزيد عن سبعين جملا وفرسين ، ولذلك وزعت على اساس جمل لكل ثلاثة أو أربعة جنود يتناوبون الركوب والمشىء ، أى ان الجندى من المسلمين مشى ما يتراوح بين مائة ومائة وعشرين ميلا ، من مائة وستين ميلا ، وهى المسافة بين المدينة وبدر .

وكان رسول الله رئيس الدولة والقائد العام للجيش ، وقائد الحملة ، عمره ٥٤ سنة .. فاعطى كسائر الجنود جملا يتناوب الركوب عليه مع على بن ابى طالب ومرندالغنوى .. وعرض رفيقاه التنازل عن دورهما فى الركوب ، ويركب النبى طوال الطريق .. فرفض قائلا : « ما انتما باقوى منى ولا أنا باغنى عن الاجر منكما »

ابنة ديان تعيرنا بعد ١٤ قرنا بان جيوشنا تمزقها الفروق الطبقية فى اللباس وتتميز عن جيوش العالم بوجود مطبخين واحد للضباط وآخر للجنود .. والبعض يزعم عن جهل أو خبث ، ان الطبقية جزء من ديننا : « ورفعنا بعضكم فوق بعض درجات » ..!

اى جيش فى العالم يتناوب القائد العام فيه الركوب مع جندى يصغره بثلاثين عاما (على بن أبى طالب) ؟! .. واى جندى فى العالم لا يفجر هذا السلوك كل عناصر الابداع والاستشهاد فيه ؟..

لم تكن قريش هى التى تنتظر على بعد مائة وستين ميلا .. بل عالم باكمله يرزح تحت استبداد المالكين وترف الحاكمين ، تمزقه الفروق الطبقية وتفترسه الاحقاد . ان المئة ميل التى سارها الرسول على قدميه فى رمال الصحراء الى جانب الناقة التى يركبها احد الجنديين زميلاه فى الوحدة القتالية .. لم تكن مسيرة فى الرمال ، بل عبر التاريخ والزمن ، نقلت الامة الجديدة الى مركز القيادة فى عالم يقوده قياصرة واكاسرة تحملهم رعاياهم فى الاستعراضات فى محفات فوق الاعناق .

وعندما وقف الرسول يستعرض الجند ويسالهم عن شكاواهم ، إدعى جندى ان رسول الله قد وخزه فى بطنه بدون مبرر ، وان من حقه ان يقتص من الرسول .. ورغم ان الرسول لا يذكر هذه الواقعة فقد كشف عن بطنه واعطى الجريدة للرجل ليضربه بها ، فقبل الرجل بطن النبى وقال : « بل أردت أن يرتدع الجبابرة من بعدك » ..

جيش هذه هى مفاهيم جنوده عن الجبابرة ، وهذا هو سلوك قائده وخضوعه للقانون وقبوله للقصاص .. يستحيل أن يحقق غير النصر ..

لم يخرج الرسول للحرب فى بدر الا بعد ان استشار المسلمين واستقر رايهم على القتال والتزموا به .. ولم يكن يرضى بانتزاع الموافقة العلنية من‌فوق المنبر ، لما فى ذلك من احراج وشبه ضغط .. بل كان فى الجيش نظام العرفاء .. اشبه بالمسؤولين السياسيين ، يطلب منهم التعرف على آراء الجنود ونقل رغباتهم التى لا يحبون اعلانها امام الجميع .

وعندما وصل الجيش الى أحد المواقع امرهم النبى ان يعسكروا فيه ..

وتقدم منه جندى فساله : اهذا الموقع هو امر من الله ليس لنا ان نتقدم عنه أو نتاخر .. ام هو الحرب والراى والمكيدة ؟ يعنى هل هو أمر الهى لا يناقش ام اجتهاد عسكرى قابل للنقاش ..

وربما كان ايمان المسلمين ـ وقتها ـ بان هذا الموقع من‌اختيار الله ، له تاثيره الفعال فى رفع معنوياتهم ، ولكن رسول الله لا ينطق عن الهوى :

ـ « لا .. بل هو الحرب والراى والمكيدة » ..

اى من تدبير واختيار الرسول .

ولم يتلعثم الجندى ولا تردد .. بل انتقد .. قال :

« فليس هذا بالموقع يا رسول الله .. انهض حتى تنزل أول الماء .. » اى اقترح موقعا اخر يعسكر فيه المسلمون ...

وكل المؤرخين العسكريين كانوا سيؤيدون الرسول لو انه رفض

الاقتراح .. فهذه اول معركة يخوضها المسلمون . واول قرار عسكري يتخذه رسول الله فيها ، ينتقده ويخطئه جندى عادى فى الجيش ..

ما تأثير ذلك على معنويات الجيش .. بالمقايس العسكرية المجردة ؟

لو كانوا جيشا عاديا ، لابى قائدهم ان يعترف بالخطا .. بل ولا جرؤ جندى على النقد والاعتراض .. ولدب الشك فى نفوسهم من هذه المناقشة ..

ولكنه جيش الاحرار الذين رباهم الرسول على تحدى العالم فى سبيل الحق .. هل يمكن ان يثوروا ضد الالهة ويرفضوا الاديان الموروثة ايمانا بالواحد القهار .. ثم يخشون مناقشة اجتهادات البشر ؟ ! ..

اصدر الرسول امره وتحرك الجيش ليعسكر حيث اشار الجندى .. وانتصر جيش الاحرار ..

كان ياتيه الوحي من السماء وكان كما تصفه عائشة : « ما رأيت رجلا أكثر استشارة للرجال من رسول الله » .

كان يكره ان ينقسم المجتمع على نفسه أو أن تفترسه الطبقية والذل وتدمر علاقاته الوشاية والتجسس :

قال : « من أطلع فى بيت قوم بغير اذنهم ففقاوا عينه .. فلا دية له ولا قصاص » .

وقال :

« لا يبلغنى أحد منكم عن أحد من اصحابى شيئا .. فانى احب أن اخرج اليكم وانا سليم الصدر » .

قال :

« اياكم والظن ، فان الظن اكذب الحديث ، ولا تجسسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا .. وكونوا عباد الله اخوانا » .

قال :

« المسلم اخو المسلم لا يظلمه ، ولا يسلمه ، ولا يخذله ، ولا يحقره » .

قال :

« من ستر مسلما ستره الله يوم القيامة » .

وقال « ادرأوا الحدود بالشبهات » وهى أم القاعدة القانونية « الشك يفسر لصالح المتهم » بل واكثر انسانية منها .

يا رسول الله صارت امتك تدين بالشبهات ، بل وتزور الشبهات لتدين الابرياء !

أما المخابرات فهى على العدو . كان يقول « الحرب خدعة » وكان يبعث العيون الجواسيس ياتونه بخبر العدو ويطلع الطلائع (دوريات الاستكشاف) ويبيت الحرس ، ويرتب الغارات المنهكة والمروعة للعدو ... وكان يرتب الصفوف عند القتال بيده ويقول : « تقدم يا فلان تاخر يا فلان » .. وكان يجعل لاصحابه شعارا يعرفون به اذا تكلموا اثناء المعركة .. وكان يخفى وجهته فيعلن انه سيغزو نجدا اذا أراد مكة .. ويفرض حظر تجول قبيل تحرك الجيش حتى لا تتسرب انباء التحرك وحجمه ..

وكان يستنطق اسرى قبيل المعركة ويستجوبهم لمعرفة موقع العدو وعدد قواته ، واستطاع تحديد عدد قوات العدو فى موقعة بدر من معرفة عدد الجمال التى يذبحونها يوميا لطعام الجيش ..

وهو الذى احدث تغييرا شاملا فى اسلوب القتال ، وادخل لاول مرة فكرة القتال بالصف ، والخندق ، وارسل البعثات العسكرية للتدرب على صناعة المنجانيق والعرادات (المدفعية والدبابات تقريبا) فى جرش (بالاردن أو اليمن) .

وفكرة الخندق التى كان لها تاثيرها الحاسم فى معركة الخندق والتى اذهلت العرب ، كانت فكرة جندى فى الجيش هو عبد فارسي اسلم فاصبح مواطنا مكتمل الحقوق فى المجتمع الجديد ، بل تنازعه المهاجرون والانصار كل فريق يريد شرف انتسابه اليه ، حتى حسم النبى النزاع فقال : « سلمان منا اهل البيت » ، واستطاع المجتمع المفتوح ان يستفيد من خبرته وعبقريته ، فكان اقتراح الخندق ..

وعندما فوجىء الزاحفون على المدينة بهذا الكشف العسكرى وقفوا عاجزين عن اقتحامها ، وقالوا « هذه مكيدة ليست من صنع العرب » كانوا يعلنون تفوق مجتمع المدينة عليهم عسكريا او تكنولوجيا ـ كما نقول اليوم ـ ولكنهم ما كانوا ليعرفوا أن هذا التفوق سببه العقلية الجديدة والقيم الجديدة ..

عقلية المجتمع الحر الذى يشير فيه الافراد على القيادة فتسمع لهم وتستوعب منهم وتستجيب لفكرهم . مجتمع لا تفرقه طبقية ولا شوفينية قومية .. مجتمع يملك سرعة الاختيار وسرعة التنفيذ فقد قام الجيش بحفر الخندق خلال شهر ، وكان تعداد

الجيش تسعمائة جندى وطول الخندق ٢ كم وعرضه ٤ امتار وعمقه ثلاثة (من دراسة محمد احمد باشميل) .. واشترك النبى فى الحفر وحمل التراب وكان يغنى مع الجنود ويقاسمهم الطعام فى ظروف الحصار الصعبة ومناخ بارد عاصف نادر الحدوث فى الجزيرة . بل كانوا يستعينون به عليه الصلاة والسلام فى تحطيم الصخور الكبيرة ..

ووسط هذه الظروف .. مدينة محاصرة يزحف عليها جيش تعداده عشرة اضعاف جيشها أو اربعة اضعاف (هناك خلاف فى الروايات) ومهددة بطعنة من الخلف بعد أن نقض اليهود معاهدة التحالف والسلام التى كانت بينهم وبين المسلمين .

وسط هذه الظروف نقف عند لمحة تعليمية .. فعندما طلب المسلمون من النبى مساعدتهم فى تحطيم صخرة ، جاء وضربها بالمعول ثلاث ضربات وهتف عند الضربة الأولى : « الله اكبر اعطيت مفاتيح الشام » .. اى سيفتح المسلمون الشام .. وعند الثانية « الله اكبر وقصور المدائن » اى فارس .. وعند الثالثة « الله اكبر اعطيت مفاتيح اليمن » ..

بعض الانهزاميين سخروا قائلين « محمد يبشرنا بفتح الشام وفارس واليمن ، ونحن لا نامن على انفسنا ان نذهب الى الغائط (دورة المياه) .. » .

وما قاله محمد حدث ..

لان الذين يغيرون التاريخ هم الذين يتخطون قسوة الواقع ويرون المستقبل فى ضوء القوة الكامنة التى سيفجرها الايمان .

الذين انهاروا تحت سوة الحاضر ، وشغلتهم الاتربة وصلابة الصخر وخطر الجيش الزاحف .. عجزوا عن رؤية المستقبل ..

والذين آمنوا برؤيا النبى ، واستعدوا لفتح فارس والشام واليمن ، تخطوا الواقع ، وانتصروا عليه .. وعاشوا حتى حققوا الاهداف العظام ..

ووسط هذا الحصار راجت اشاعات فى معسكر المسلمين عن نقض اليهود للمعاهدة ، واستعدادهم للزحف على المدينة عندما يصل جيش العدو اليها .. فارسل النبى وفدا يستطلع الخبر وأمرهم اذا كان الخبر غير صحيح ان يعلنوا ذلك جهرا بين الجنود ليطمئنوا .. اما اذا كان صحيحا فيبلغوه ذلك علنا ولكن بعبارة يتفق عليها لا يفهمها الجند .. وفعلا ذهب الوفد وعاد وقال للنبى عبارة فهم منها ان اليهود غدروا .. ولكن دون ان يعرف عامة الجند ما حدث .

لنتخطى غزوة الخندق .. فالنتيجة معروفة هى انتصار المسلمين ويشهد على ذلك ستمائة مليون ..

بعد الغزوة اتجه النبى لاستئصال اليهود من المدينة بعدما تبين انهم يتحينون الفرص للانقضاض عليها وبعدما فسخوا هم عهد الامان ، واعلنوا الحرب ..

وكانت الحرب التى قادها « حيى بن أخطب » زعيم اليهود وقائدهم ، وصاحب الجهد الاكبر فى تشكيل الحلف بين كل اعداء الدين الجديد ومحاصرة المدينة ..

وفى تلك المرة هزم المسلمون اليهود وكانت هزيمة اليهود ساحقة وعقوبتهم صارمة ..

واذا كان قدر الانسانية هو الحرب .. فان خير الحضارات هى التى لا تجعل الحرب نتيجة احقاد موروثة ، ولا ترتب على الحرب توارث الاحقاد والتفرقة .. واليهود الذين رفضوا العالم ورفضهم العالم .. كان يمكن ان تسبب خيانتهم للمسلمين فى محنتهم أثناء الحصار عداوة تاريخية تضاف الى الشحنة الدائمة الموجودة ضد اليهود بفعل انعزالهم واحتقارهم للجنس البشرى ، فتخلق عداوة أبدية بين الحضارة الجديدة البازغة ، وبين اليهود ، ولكان العالم قد اطبق عليهم فعلا .. فهم مرفوضون فى العالم المسيحى ـ وقتها ـ بحكم خيانتهم للمسيح ، ثم يرفضون فى العالم الاسلامى بحكم خيانتهم للنبى .

وهنا تتالق واحدة من اشراقات حضارتنا ، لفتة نبوية تستاصل كل امكانية ظهور تيار معاد لليهود لانهم يهود .. أو لنمو احتقار لجنس اليهود .

ليست المشكلة ان نحارب اليهود ، ولا ان نبغض بعض اليهود، بل الخطا هو أن تقوم حضارة تبغض اليهود كل اليهود وكل الوقت ولانهم مجرد يهود ..

ولو بقيت معركة النبى مع يهود بنى قريظة فى التاريخ عند مجرد ذكريات المعركة وما أعقبها من قصاص صارم ، لولدت عداء ربما تحول مع تدهور الحضارة الى عنصرية متعصبة ضد اليهود .. ولكن كيف تمتع اليهود بالمكانة السامية التى احتلوها فى ظل الحضارة الاسلامية .. ؟

بالطبع للموقف الاسلامى ابعاده فى صميم العقيدة التى تحترم

ونؤمن كل الاديان السماوية التى سبقتها ، ولكن الحضارات ممارسة كما هى قيم وتعاليم .. وفى تلك الغزوة اتخذ النبى قرارا استاصل كل امكانيات انحراف السلوك المتسامح اذ تزوج صفية ابنة قائد اليهود الذى قتل فى تلك الحرب ، والد اعداء المسلمين الذى سعى جهده فى تكوين الحلف المعادى لغزو المدينة وابادة المسلمين .

رسول الله .. قائد الجيش المنتصر .. يتزوج يهودية أسيرة تبيح له القوانين وعرف العصر ان تكون جاريته يستمتع بها كيف شاء .. ولكنه ينقلها من الاسر الى مرتبة الزوجة وليلة المعركة حتى لا يبيت الجيش المنتصر الا وهو يسلم على ابنة اليهودى « السلام عليكم يا أم المؤمنين » .

انتهت العداوة بانتهاء القتال ..

لا تمييز ولا جنس سيد وجنس مقهور ..

لا شعب مختار .. ولا شعب ملعون ..

ابنة اليهودى اصبحت اما لكل المؤمنين .. وبعد ١٤ قرنا عجز بن غوريون عن اعطاء الجنسية لحفيده لان أمه غير يهودية ؟

من يا تاريخ يصلح أن يكون منارة للحضارة فى الشرق الاوسط ؟ ..

وفى معسكر المسلمين ، وفى بيت النبى كانت هناك أسيرة يهودية هى « ريحانة » .. رفضت الاسلام وأصرت على يهوديتها..

وكان النبى يحب أن تسلم ، حتى أنه كان اذا سمع صوت اقدام تسير نحوه قال « لعل احدهم جاء يبشرنى باسلام ريحانة »

أسيرة فى بيت قائد الجيش المنتصر ، تصر على تحدى دعوته ، وتصر على التمسـك بيهوديتها . ولا يفكر النبى فى اجبـارها على التخلى عن عقيدتها ..

صـــلوات الله عليـك .. امتك يوصى بعض قادتها باعتقـال خصومهم من بنى دينهم وامتهمحتى ينسوا اسماءهم ! ..

* * *

ناداه رجل يا ســيدنا وابن ســيدنا وخيرنا وابن خيرنا .. فقال :

« لا يستهوينكم الشيطان .. انا محمد ابن عبد الله ورســوله .. والله ما أحب ان ترفعونى فوق منزلتى » .

وكان اصحابه اذا راوه قادما عليهم لم يقوموا اليه وهو احب الناس اليهم .. لما يعرفون من كراهيته لقيامهم ..

وكان يـكره ان يمشى اصـحابه وراءه وياخذ بيــد من يفعـل فيدفعه الى السير بجانبه .

لذلك مسار التاريخ وراءه هو واصحابه .

رآه رجل فارتعد .. فقال رسول الله : « هون عليك فانى لسنت، ملكا .. انما انا ابن امراة كانت تاكل القديد .. » « كان لا يانف ولا يستكبر ان يمشى مع الارملة والمسكين فيقضى حاجته .. وكان يخصف حذاء الرجل المسكين .. ويخيط ثوب الارملة ..

كان يعود المريض .. وعاد غلاما يهوديا كان يخدمه .

وما كان يغلق دونه الابواب ، ولا يحول دون مقابلته حجاب

.. ولا يغدى عليه بالجفان ، ولا يراح عليه بها .. كان من أراد مقابلة نبي الله يقابله .

لم يمتلك قميصين قط ولا ردائين ولا ازارين ولا نعلين .

وكانت له مخدة من جلد حشوها ليف .. وكان ينام احيانا على عباءة تثنى طيتين .. فطوتها زوجته حفصة ٤ طيات فلما نام عليها ، بلغ من لينها ورفاهيتها ان استغرق ، صلوات الله عليه ، في النوم حتى فاتته صلاة الليل .. فنهى حفصه عن ذلك وأمرها أن تعيد العباءة الى وضعها الاول .

ولم يكن يحب الفقر ، ولا يرضي به ، وكان في دعائه يستعيذ منه : « اعوذ بالله من الجوع ضجيعا » .. وكانت ثروة الجزيرة كلها تحت أمره لو شاء .. ولكن ما دامت البشرية قد كتب عليها ان تعيش قرونا عديدة وفيها الفقر والغنى .. فخير نظام تصل اليه هو ذلك الذى يجعل حكامها في جانب الفقراء ..

فما ابشع ان تجتمع السلطة والغنى في جانب واحد .

وما أبشع ان يستأثر المترفون بالسلطة .. أو ان تستأثر السلطة بالرفاهية ..

* * *

صلوات الله عليك يا خير فالدلخير امة اخرجت للناس ..

ونحن نودع تلك الحلقات أو التأملات الخاطفة فى سفر التراث ، والتى أردنا بها لا الدفاع عن هذا التراث فقد دافع عن نفسه ، ومنح الانسانية فترة من أرقى عصورها ، وارسى قيما يتأكد تفوقها كل يوم .. بل اردنا ان نثير همة شبابنا لمعرفة هذا التراث . فالسبب الاول لنفور انصاف المثقفين من تراثهم هو الجهل به .. وما من مثقف شريف اتيحت له فرصة دراسة هذا التراث الا وعاد الى الايمان به والزهو بالانتماء اليه ..

كنت احب ان يتفرغ البعض لدراسة مغزى قصة ابليس فى القرآن ، وما تلقنه من قيم ومبادىء ، بعيدا عن جهل أو خبث الجاهلين والمتخابثين ..

والدارس لقصة ابليس ، كما عرضها القرآن ، يكشف أى أساس راسخ للديمقراطية وحرية الرأى وحق المعارضة يمكن ان ترسيه فى نفوس المؤمنين بها ..

فقد جمع الله سبحانه وتعالى الملائكة وابلغهم « انى جاعل فى الأرض خليفة » فلم يصفق الملائكة ولا هتفوا ثلاثا ابتهاجا بالقرار واعلنوا تفويضا مطلقا للبارئ عز وجل تعالى عما يصفون ، بل ظهر منهم من اعترض على ارادة الذات الالهية ، وناقش ، وتساءل عن الحكمة فى هذا القرار ومبرراته ولم يهمس الملائكة بذلك فى أعماقهم بل جهروا به : « قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » ..

ويقنعهم الله سبحانه وتعالى بتفوق آدم ، لان آدم يمتلك المعرفة فهو الذى ينبئهم بالاسماء ، بينما عجزت الملائكة عن ذلك ، والتسمية هى التمييز والادراك والتحديد ، وهو ما يتميز به

الانســان عن الحيوان الذى تنقســم عنــده الاشــياء الى مرفوض ومقبول ، وعن الملائكة الذين ينقسم الكون عندهم الى حقيقتين : الخالق والمخلوق ..

وعندما يثبت تفوق الانسان يقول البارى عز وجل للملائكة :
« ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والأرض .. » .
وعندها يسبح الملائكة موافقين ..

الا ابليس الذى كان من الجن فقد أبى واســتكبر ، انطلاقا من قناعته بالتمييز العنصرى ، فهو يعتقد ان عنصر النار افضل من عنصر الطين ، ولذلك اعترض ورفض بل تساءل فى استنكار :
« قال أأسجد لمن خلقت طينا » ؟

ولم تخسف السماء بالعاصى ، ولا سحقته الملائكة المؤيدة ، بل يسأله البارى عز وجل على رؤوس الاشهاد : « قال ما منعك الا تسجد اذ امرتك » .

ولا يتلعثم ابليس .. ولا يغير اقواله .. بل يجيب :« قال انا خير منه ، خلقتنى من نار وخلقته من طين » ..

ويعاقب ابليس على تكبره ، على رفعه لاول مرة فى الكون شعار التفرقة العنصرية ، والتميز بالاصول والمعادن ، يقــول الله سبحانه وتعالى : « قال فاهبط منها فما يكون لك ان تتكبر فيها فاخرج انك من الصاغرين » .

وهنا يطلب ابليس مهلة لاثبات صــحة رأيه .. فى انحطاط جوهر الانسان ، ونظرية العناصر « قال انظرنى الى يوم يبعثون »

و « قال ارأيتك هــذا الذى كرمت على لئن اخرتنى الى يوم القيامة لاحتنكن ذريته الا قليلا » .

ويعطى ابليس المهلة التى طلبها : « قال انك من المنظرين » « قال فبما اغويتنى لاقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم ولا تجـد اكثرهـم شاكرين ».

اى قيم يمـكن ان تثيرها وتعززها الدراسـة الهادفة لهــذه القصة ؟ ..

الانسان سيد الكون .. هو وحده سجدت له الملائكة ..

هل يجوز ان يمتهن هذا الذى كرمه الله بسجود الملائكة نفسه بالمذلة لمخلوق ؟ ..

وحرية المناقشة وحـق الاعتراض ، وحق الخطأ ، والايمـان الذى يبنى على الاقتناع ، اليست هى الاساس العقائدى لبنـاء نظام ديموقراطى ، لا يستطيع حاكم فيــه ، مهما علا وتضـخم ان يحرم الشعب من حق الاعتراض لقراراته .

ورفض التمييز العنصرى ؟ ! السنا نجد اسسه فى قصـة ابليس ؟

كل هذه القيم يمكن ان تستشف وتبعث وترسى من دراسـة جادة للتراث ..

ولو شئت ان اتتبع الاساس الايديولوجى ..

ـ كما يقولون ـ لرسوخ مبادىء الحرية والديمقراطية فى تراثنا

.. لاشرت الى فكرة حرية الاختيار : « فمن شاء فليؤمن ومن شـاء فليكفر » .. « لست عليهم بمسـيطر » .. « لا اكراه فى الدين . قد تبين الرشد من الغى » ..

انتهت مسؤولية الاسلام عند هذا الوضوح .. بتبين الرشد من الضلال ، وعلى كل انسان ان يتحمل مسؤولية اختياره !

اما فى داخل الفكر الاسلامى فحرية الخطأ ليست فقط مكفولة بل يثاب عليها ، ولا اظن ان فلسفة أو نظاما قد شرع ان « للمجتهد ان اصاب اجران وان اخطأ اجر » ..

ليس فى تاريخ البشرية تحريض اوضح من هذا على التفكير الحـر ..

وكما قال عمر « الرأى مشترك » اى ان العقول البشرية كلها متساوية ، ليس هنالاعقل مميز لانهيستمد سلطانه من قوة خارجة عن المعلومات المتاحـة للبشر .. فباسـتثناء الوحى الذى يوحى للرسول حول امور الدين ـ وهو اخـر الانبياء ـ ورفـع الوحى بعده ، فالناس سواسية فى حق التفكير ، يتميزون بما يكتسبون من معرفة ولا يضير رسول الله ان يعترف لهم « انتم اعلم بامور دنياكم » ..

وما دامت المساواة قد تحققت بين العقول ، فان التصويبحق لكل مواطن ، بل فريضـة .. فمن رأى منكرا فليغيره بيـده او بلسانه أو باضعف الايمان ، وهو القلب .. فالاسلام يامرنا ـ

كحد ادنى ـ ان نستنكر الزيف بقلوبنا .. اذا ما فرضت السلطة الخطأ وكنا اضعف من ان نواجهها ، لا ان نرى الحق فيما تراه السلطة .. فهذا الاستنكار يخلق حافزا قابلا للانفجار فى آية لحظة ..

واذا استند الباطل الى السلطة ، حقت الثورة .. والذى يحرض على ذلك هو أمير المؤمنين عمر .. يامر بقتل الخليفة المنحرف فيراجعه طلحه : « فهلا قلت لو انحرف اعزلوه ... » فيأبى عمر : « لا القتل أنكل لمن بعده » اى يردع من بعده عن الانحراف ..

فليس فى تراثنا ظل الله على الارض .. وقد حرص المسلمون على تسمية سلطانهم : « خليفة رسول الله لا خليفة الله » .. ورسول الله لا يمت للالوهية بشبهة ، بل هو بشر يمشى فى الاسواق ويكلم الناس « ويخطىء ويصيب » كما وصف نفسه .. وهو يتميز عن البشر بالوحى الذى اختص به .. وبالتالى فلا قدسية لخليفته الذى لا يوحى له .. والطاعة المفروضة هى بسبب العقد القائم بينه وبين الامة عند انتخابه او مبايعته ..

وقد اجمع فقهاء الاسلام فى المذاهب التى حكمت معظم تاريخنا على حق الشعب فى خلع الخليفة .. بل ومحاكمته .. و « الباقلانى » يستنكر قتل عثمان ويؤكد ان الثائرين كان عليهم « القبض عليه لما اخذوه وتمكنوا من داره .. او حبسه وابعاده .. او اخذه بغاية الارهاب بخلع نفسه لو كان مستحقا للخلع » (اى اجباره على الاستقالة) الباقلانى كتب ذلك منذ تسعمائة وستين سنة ! ..

بل ان الله يعاقب الامة التى تسكت على انحراف الحاكم « ان الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة ، حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم ، وهم قادرون على ان ينكروه فلا ينكرونه » .

فالامة التى تقر الظلم تظلم ويعاقبها الله .. « ومن اعان ظالما على ظلمه سلطه الله عليه » ..

والامة التى يعاقبها الله ، اذا ما جبنت عن الثورة على انحراف المسؤولين ، لا شك انها امة يفترض فيها الحرية والمسؤولية ، وانها هى وحدها المصدر الوحيد للشرعية .

والحاكم مطالب بان يقيم حكمه على الشورى ، ويرى « الرازى » ان نزول آية « وشاورهم فى الامر » بعد غزوة احد ، يؤكد حرص الاسلام على تاكيد الشورى .. ففى هذه الغزوة بالذات كان راى المسلمين خلاف راى الرسول ، اذ اصروا على الخروج للقتال ، بينما كان راى الرسول التحصن بالمدينة .. وقد استجاب النبى لراى الاغلبية .. وكانت هزيمة .. ومثل هذا الحدث قد يعطى مبررا لاى حاكم مستبد يظهر عبر التاريخ ، لكى يرفض راى العامة لانه خاطىء .. ومنعا لذلك نزلت آية الشورى فى اعقاب غزوة احد بالذات ، لتقطع الطريق على من يحاول الانتقاص من راى الامة او الافتئات على حقوقها ..

فالامم احوج ما تكون للشورى بعد الهزيمة ، وليس فى لحظات النصر وحدها ..

وفى تراثنا ان المجتمع ملزم بضيافة الغريب ثلاثة ايام فان منعه المجتمع هذا الحق كان له ان يأخذه غصبا !

وان من حق الجائع ان يخرج على الناس بسيفه .. وان من كان له فضل ظهر (اى ناقة اكثر من ناقته التى يركبها) فليعد على من لا ظهر له ، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له .. فذكر من اصناف المال ما ذكر حتى راينا انه لاحق لاحد منا فى فضل » اى عدد من اصناف الممتلكات حتى راى المسلمون انه لا يجوز لاحد أن يحتفظ لنفسه باكثر من حاجته !

قيم كثيرة .. تثير الاعتزاز بالتراث ، والايمان بقدرة حضارتنا على ان تقدم من جديد ، علاقات افضل على نطاق مجتمعنا ، وعلى نطاق الانسانية ككل ..

وما من امة قد اقامت حضارة الا انطلاقا من ايمانها برسالة عالية ..
وما من امة استوردت رسالة عالية لامة اخرى ، واستطاعت ان تبنى شيئا ..

وكل عام وانتم بخير .. يا من كنتم يوما خير امة .. فهل تكونون مرة اخرى ؟!

مطابع المختار الاسلامى
دار السـلام